Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

The Status of Tafseer "Al-Bahr Al-Muhit" By Abu Hayyan Al-Andalusi and its Literary and Linguistic Methodology

مكانة تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ومنهجه الأدبي واللغوي

Dr Shfaqat Ali Al Azhari
Professor, School of Arabic, Minhaj University Lahore
Email: sabaliwaag@gmail.com

Dr Abdulmajid Nadeem
Professor, Deportment of Arabic, University of the Punjab

Abstract:

This paper examines the status of Al-Baḥr al-Muḥīṭ, one of the most prominent classical Qur'anic commentaries authored by Abu Ḥayyān al-Andalusi (d.745 AH). The study explores the distinctive characteristics that granted this tafsir a significant position within the tradition of Qur'anic exegesis, particularly its strong linguistic orientation. It analyzes Abu Ḥayyān's methodological approach in dealing with Arabic grammar, morphology, rhetoric, and Qur'anic readings, as well as his critical engagement with earlier exegetes Through analytical examination.

Keywords: Exegesis; Abu Ḥayyān Al-Andalusi; Linguistic, Literary Methodology; Grammar Approach

الإمام أبو حيان النحوي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان الغرناطي الأندلسي الجياني، المعروف بأثير الدين (654–745هـ/1256–1344م)، يُعد من كبار علماء العربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات في القرنين السابع والثامن الهجريين. وُلد في إحدى مناطق غرناطة، ثم انتقل إلى مالقة، واستمر في تنقلاته العلمية حتى استقر في القاهرة، حيث عاش بقية حياته إلى أن أصابه العمى وتوفي فيها.

لقد لقيت مؤلفاته شهرة واسعة في حياته، وحرص الطلبة على قراءتها عليه. ومن أبرز أعماله: تفسيره "البحر المحيط" في ثماني مجلدات، وكتاب "النهر" الذي لخّص فيه البحر المحيط، إضافة إلى "مجاني العصر" الذي خصصه لتراجم أعلام عصره[1].

يُمثل القرآن الكريم الذروة العليا في الفصاحة والبيان، ولأجل فهم أسراره العميقة، قام العلماء لاستنباط معانيه من خلال علوم اللغة العربية. وفي هذا السياق، يبرز تفسير البحر المحيط للإمام أبي حيان الأندلسي كواحد من أعظم القمم العلمية التي لم يقتصر دورها على شرح الآيات فحسب، بل صار ميزاناً لغوياً ونحوياً تُعرض عليه سائر

CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

التفاسير. إن هذا الكتاب ليس مجرد شرح للذكر الحكيم، بل هو موسوعة شاملة جمعت شتات الفكر اللغوي والنحوي والأدبي، وصهرته في قالب تفسيري فريد يبرز إعجاز النظم القرآني.

لقد استطاع أبو حيان الأندلسي، بعبقريته الفذة وتكوينه العلمي المتين بين غرناطة والقاهرة، أن يضع منهجاً نقدياً رصيناً في تفسيره. فبينما كان المفسرون يركزون على الجوانب العقدية أو الفقهية، جعل أبو حيان من الكلمة ومن الجملة النحوية محوراً للبحث.

إن أهمية هذا المقال تكمن في تسليط الضوء على تلك المكانة السامية التي تبوأها البحر المحيط في المكتبة الإسلامية، وكيف استطاع مؤلفه أن يجعل من النحو واللغة أداتين حيتين للكشف عن أسرار الوحي، بعيداً عن الجمود الذي قد يكتنف الدراسات اللغوية المجردة.

يتناول هذا المقال بالتحليل ودراسة المنهج الأدبي واللغوي الذي سار عليه شيخ النحاة أبو حيان؛ حيث سنغوص في طريقته الفريدة في استقصاء المفردات واشتقاقاتها، وتوجيهه للقراءات القرآنية من منظور نحوي، ورصده للجماليات البلاغية التي تمنح النص القرآن روعته وجلاله.

التعريف بأبي حيان الأندلسي:

يُعد الإمام أبو حيان الأندلسي (654هـ - 745هـ) واحداً من أبرز أعلام الفكر اللغوي والتفسيري في تاريخ الحضارة الإسلامية. هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أثير الدين الأندلسي الغرناطي. لُقب بـ شيخ النحاة وأمير المؤمنين في النحو نظراً لتبحره المنقطع النظير في علوم اللسان العربي. انتقل من غرناطة بالأندلس وطاف بلاد المغرب والشام حتى استقر بمصر، حيث جمع بين المدرسة الأندلسية والمدرسة المشرقية، مما جعل منه شخصية علمية جامعة. تميز منهجه بالدقة اللغوية الفائقة، والاعتماد على السماع والقياس، مما جعل تفسيره البحر المحيط مرجعاً لا يستغني عنه أي باحث في علوم القرآن والإعراب.

يقول الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله في وصف المكانة العلمية لأبي حيان وتفرده في عصره:

أبو حيان هو الإمام، العلامة، أستاذ الدنيا، شيخ النحاة، صاحب التصانيف التي سارت بها الركبان، واشتهرت في حياته، وتنافس الملوك في اقتنائها. كان إماماً في النحو واللغة والقراءات والحديث، ولم يرَ الناسُ مثله في حفظِ متونِ اللغةِ وكثرةِ الاطلاعِ على شواهدِ العرب [2] .

OPEN ACCESS
CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

يصف الحافظ ابن حجر العسقلاني قيمة تفسير البحر المحيط من الناحية النحوية قائلاً:

صنف التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط، وهو أجلُّ كتابٍ صُنِّف في إعراب القرآن وبيان وجوهه النحوية، وقد استفرغ فيه جهده في جمع مذاهب النحاة البصريين والكوفيين، مع الدقة في النقل والأمانة في العزو، مما جعل تفسيره مرجعاً لا يستغني عنه طالبُ علمٍ أو مفسر[3]

يمكن القول إن أبا حيان الأندلسي مثّل قمة الهرم في المدرسة الأندلسية اللغوية. لم يكن مجرد مفسر ينقل الآثار، بل كان ناقداً بصيراً استعمل أدوات اللغة والنحو لخدمة النص القرآني.

إن البحر المحيط ليس مجرد كتاب في الدين، بل هو ديوان للغة العرب وقواعدهم، مما جعله العمود الفقري لكل الدراسات اللسانية اللاحقة في التفسير.

مكانة البحر المحيط في المكتبة القرآنية:

يحتل كتاب البحر المحيط مكانة مرموقة واستثنائية في تاريخ التفسير، فهو لا يُصنف مجرد تفسير بالمأثور أو بالرأي، بل هو العمدة في التفسير اللغوي والنحوي. نبعت أهميته من كونه جسراً بين العلوم الشرعية والعلوم اللسانية، حيث استطاع أبو حيان أن يجمع فيه خلاصة ما كتبه المتقدمون مثل الزمخشري وابن عطية، لكن برؤية نقدية نحوية رصينة.

إن المكتبة القرآنية تعتبر هذا الكتاب موسوعة إعرابية شاملة، حيث لم يترك أبو حيان مفردة أو جملة في القرآن الكريم إلا وأخضعها لمقاييس اللغة وأوجه الإعراب المحتملة، مما جعله مرجعاً أساسياً لكل من جاء بعده من المفسرين واللغويين.

يصف العلامة طاش كبري زاده قيمة هذا التفسير وشموليته في كتابه مفتاح السعادة قائلاً:

تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي هو الكتاب الذي لم يُصنَف في فنه مثله، وقد استوعب فيه وجوه الإعراب والقراءات، والبحث عن المعاني اللغوية، واعتمد فيه على النقل الصحيح عن أئمة اللغة والنحو، فصار كالبحر الذي لا يُدرك قعره في غزارة المادة العلمية[4].

يؤكد الدكتور محمد حسين الذهبي على تميز هذا التفسير في ناحية الإعراب وعلوم اللسان بقوله:

يُعتبر البحر المحيط أوسع مرجع عُني بذكر وجوه الإعراب للمفردات والجمل، فصاحبه إمام النحاة في عصره، وقد جعل همه الأكبر في هذا الكتاب هو خدمة النص القرآني من جهة القواعد النحوية والتصريفية، حتى غلبت عليه الصبغة اللغوية التي تميزه عن غيره من التفاسير[5].

CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

نماذج من تفسير البحر المحيط:

المثال الأول (تفسير قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا في سورة إبراهيم):

عند تناول هذه الآية، لا يكتفي أبو حيان بالمعنى البلاغي للمثل، بل يغوص في إعراب كيف. فيبحث هل هي اسم في محل نصب على الحال؟ أم أنها مفعول مطلق؟ ثم يناقش تعليق فعل الرؤية بـ كيف وما يترتب عليه من قواعد نحوية في باب أفعال القلوب، ويورد استشهادات من لسان العرب ليثبت أن الاستفهام في كيف يمنع ما قبله من العمل فيما بعده، وهو تفصيل لا تجده بهذه الدقة إلا عنده[6].

المثال الثاني (تفسير قوله تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ في سورة فاطر):

يركز أبو حيان هنا على القاعدة النحوية التي يترتب عليها المعنى العقدي. فيوضح أن الله مفعول به مقدم منصوب بالفتحة، والعلماء فاعل مؤخر مرفوع بالضمة. ثم يشرح أهمية تقديم المفعول به هنا لإفادة الحصر والقصر من خلال إنما، ويناقش الأوجه الإعرابية الشاذة التي نُقلت في بعض القراءات، مبيناً ضعفها من الناحية اللغوية ومخالفتها لأصول النحو العربي، مما يحمي العقيدة بسياج اللغة[7] .

إن مكانة البحر المحيط تنبع من كونه الميزان اللغوي الذي تُعرض عليه الأقوال في التفسير. لقد استطاع أبو حيان أن يجعل من القواعد النحوية الجافة أداة حية لفهم مراد الله تعالى. فالمكانة التي يحظى بها الكتاب اليوم هي نتيجة طبيعية لدقة المنهج، وسعة الاطلاع، والأمانة العلمية في نقل آراء البصريين والكوفيين، مما جعله القاموس المحيط لكل مفسر يروم الدقة والتحقيق.

المنهج اللغوي عند أبي حيان: استقصاء المفردات واشتقاقاتها

يمثل المنهج اللغوي الركيزة الأولى التي يبدأ بها أبو حيان الأندلسي تفسيره لكل آية؛ فهو يرى أن فهم كلام الله لا يستقيم إلا بمعرفة دقيقة بمفردات اللغة العربية من حيث أصولها، واشتقاقاتها، ومعانيها الحقيقية والمجازية. لا يمر أبو حيان على الكلمة القرآنية مروراً عابراً، بل يستقصي أصلها في لغة العرب، ويبحث في تصريفاتها الصرفية، ويقارن بين معانيها في السياقات المختلفة. يتميز منهجه اللغوي بالأصالة، حيث يعتمد على السماع من لغة العرب الفصحى ويستشهد بالشعر الجاهلي بكثافة، مما جعل كتابه معجماً لغوياً وتفسيراً قرآنياً في آن واحد، وهو بذلك يضع القارئ أمام خريطة لغوية متكاملة للمفردة قبل الولوج إلى استنباط الأحكام.يقول الدكتور مساعد الطيار موضحاً منهج أبي حيان في تحليل المفردات القرآنية:

OPEN ACCESS
CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

إن أبا حيان في بحره قد عُني بعلم اللغة عناية بالغة، فهو يبدأ بذكر معاني المفردات لغوياً، ثم يذكر اشتقاقها وتصريفها، ويستشهد على ذلك بكلام العرب وشعرهم، وهو في ذلك يسير على خطى أئمة اللغة الكبار، مما جعل تفسيره مرجعاً لغوياً يقصدُه كل من أراد الوقوف على أسرار اللفظة القرآنية[8].

يؤكد الإمام الشوكاني على تميز أبي حيان في الجانب اللغوي والصرفي بقوله:

كان أبو حيان في تفسيره شديد الاعتناء بوجوه التصريف والاشتقاق، لا يكاد يترك كلمةً يُحتاج إلى بيان أصلها إلا وفعل، وهو في هذا الباب قد برَّ أقرانه، ونقل من كتب اللغة ما تفرق في غيرها، مع التصحيح والتضعيف لما يُنقل عن اللغويين[9].

ومن أمثلتها: المثال الأول (تفسير لفظ الصراط في سورة الفاتحة):

عندما يتناول أبو حيان لفظ الصراط، فإنه يبدأ ببحث لغوي واشتقاقي عميق، فيذكر أن الصراط يُكتب بالصاد وبالسين (السراط)، ويبين أن أصلها من السرط وهو البلع، وكأن الطريق يبتلع السالكين فيه. ثم يبحث في لغات العرب (قبائلهم) في نطق هذا الحرف، ويستشهد ببيت من الشعر ليؤكد أن العرب تطلق الصراط على الطريق الواضح، وهو بهذا يربط بين الحركة المادية (البلع والمشي) وبين المعنى الروحي للطريق المستقيم[10].

المثال الثاني (تفسير لفظ استوى في سورة البقرة):

في قوله تعالى ثم استوى إلى السماء، يعقد أبو حيان فصلاً لغوياً في مادة (س و ي)، فيذكر أن استوى في لغة العرب تأتي على عدة معاني: الاستيلاء، والكمال، والقصد. ثم يحلل حرف الجر إلى الذي جاء بعد الفعل، مبيناً أن استوى إذا عُديت بـ إلى تضمن معنى قصد بإرادة، وإذا عُديت بـ على أفادت معنى العلو والارتفاع. هذا التفصيل الاشتقاقي والصرفي يمنع التأويلات الخاطئة ويضع المعنى في إطاره اللغوي الصحيح.[11].

خلاصة القول أن المنهج اللغوي عند أبي حيان ليس مجرد سرد للمعاني، بل هو تشريح دقيق للمفردة القرآنية. إن قدرته على رد الكلمات إلى أصولها الاشتقاقية (Etymology) وربطها بالاستعمالات العربية القديمة جعلت من تفسيره حصناً للغة العربية. وبذلك، أثبت أبو حيان أن الإعجاز القرآني يبدأ من المفردة لينطلق إلى الجملة، وأن المفسر الحقيقي هو من يمتلك ناصية اللغة اشتقاقاً وتصريفاً.

النحو في البحر المحيط: مدرسة أندلسية في تحليل التراكيب القرآنية

يُعد الجانب النحوي هو العمود الفقري لتفسير البحر المحيط، حتى طغى هذا الجانب على الكتاب فصار يُعرف عند العلماء بـ تفسير النحاة. لم يكن أبو حيان في تفسيره ناقلاً لآراء النحويين فحسب، بل كان إماماً مجتهداً يزن الأقوال بميزان القواعد والأصول. تميز منهجه النحوي بالنزعة الأندلسية التي تميل إلى التدقيق

OPEN ACCESS
CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

والانتصار للسماع، مع قدرة فائقة على استقصاء كافة الوجوه الإعرابية الممكنة للجملة القرآنية. إنه يحول الآية إلى مختبر نحوي يستعرض فيه آراء البصريين والكوفيين، وينقد الزمخشري وغيره من المفسرين إذا خالفوا أصول النحو، مما جعل كتابه أوفى مرجع لمن أراد دراسة إعراب القرآن الكريم دراسة تأصيلية معقدة.يصف تلميذ أبي حيان، الإمام تاج الدين السبكي، براعة شيخه النحوية في التفسير قائلاً

كان الشيخ أثير الدين أبو حيان لا يجارى في علم النحو، وقد أودع في تفسيره البحر المحيط عجائب هذا الفن، فكان يذكر إعراب الكلمة وجملتها، ويناقش فيه المذاهب النحوية مناقشة المطلع الخبير، حتى صار كتابه هو المرجع الأعلى في إعراب القرآن، ولا يفتي نحويٌّ في آية إلا بعد النظر في قوله. [12]

يقول الدكتور محمد بن ناصر الشتري مبيناً المنهج النقدي النحوي عند أبي حيان:

إن أبا حيان لم يكن في بحره مجرد جامع للأعاريب، بل كان ناقداً بصيراً، يُعمل قواعد النحو في النص القرآني، ويردُّ الوجوه الضعيفة التي لا تستقيم مع لسان العرب، وقد عُرف عنه شدته على الزمخشري في المسائل النحوية، فكان يتبعه بالرد والاعتراض إذا ما رأى فيه خروجاً عن القواعد النحوية المقررة[13].

ومن أمثلتها:المثال الأول (تفسير قوله تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ في سورة النساء):

يناقش أبو حيان إعراب كلمة الأرحام في قراءة الجر (والأرحامِ). فيورد رأي الكوفيين الذين أجازوا العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار، ثم يشن حملة نحوية دفاعاً عن مذهب البصريين الذين يمنعون ذلك. ويستشهد بأقوال سيبويه والجمهور مبيناً أن هذه القراءة -رغم صحتها- تخرج عن القياس النحوي المشهور، ويحلل الضرائر الشعرية التي استند إليها المخالفون، مما يجعل المسألة درساً نحوياً معمقاً في باب العطف[14].

المثال الثاني (تفسير قوله تعالى: وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ في سورة المائدة):

يتناول أبو حيان قراءة النصب (وأرجلَكم) وقراءة الجر (وأرجلِكم) في آية الوضوء. فيشرح من الناحية النحوية أن النصب يعني العطف على المغسول (وجوهكم)، بينما الجر قد يكون على الجوار (وهو أسلوب نحوي عربي). ثم يحلل هذه المسألة اللغوية ويربطها بالأحكام الفقهية، موضحاً كيف أن الإعراب هنا هو المفتاح لفهم هل الحكم هو الغسل أم المسح، وينتصر لنصبها عطفاً على المحل، مستشهداً بقواعد النحو التي تضبط سياق العطف والتبعية[15] .

أن النحو عند أبي حيان ليس مجرد ترف فكري، بل هو آلة شرعية لحماية النص القرآني من التأويلات البعيدة. لقد استطاع في البحر المحيط أن يجعل من الإعراب علماً يخدم المعنى، وأثبت أن التمكن من ناصية النحو

OPEN ACCESS
CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

هو شرط أساسي للمفسر. إن صرامته النحوية ومدرسته الأندلسية جعلت من هذا الكتاب حصناً لغوياً لا يجرؤ أحد على تجاوزه عند الحديث عن تراكيب الذكر الحكيم.

الصناعة الأدبية والجمالية في التفسير:

لم يقتصر أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط على كونه نحويًا جافًا، بل كان أديبًا ناقدًا يمتلك ذائقة بيانية رفيعة. إن المنهج الأدبي عنده يتجلى في تتبع نظم القرآن والربط بين الآيات والسور فيما يُعرف بـ المناسبة. هو يبحث عن أسرار اختيار الكلمة دون غيرها، ويحلل الصورة الأدبية من خلال الاستعارة والكناية والتمثيل. بالنسبة لأبي حيان، فإن الإعجاز ليس في المفردة وحدها، بل في كيفية رصف هذه المفردات في عقدٍ أدبي فريد يعجز البشر عن محاكاته. هذا الجانب الجمالي في تفسيره جعل النص القرآني يبدو كبنيان مرصوص يشد بعضه بعضًا، حيث تتآلف فيه الفصاحة اللفظية مع البلاغة المعنوية.يقول الدكتور محمد أجمل الإصلاحي عن البعد الأدبي في منهج أبي حيان:

إن أبا حيان كان يُعنى بوجوه البلاغة عناية فائقة، فهو لا يكتفي بالإعراب، بل يتجاوزه إلى بيان بديع النظم، ويربط بين الآيات برباط أدبي وثيق، موضحاً وجه المناسبة بين السابقة واللاحقة، مما يكشف عن وحدة النص القرآني وجماله الفني الذي يحير العقول[16].

يؤكد الإمام ابن الزملكاني على الحس الأدبي المرهف لأبي حيان بقوله:

لقد أوتي أبو حيان من الفصاحة والقدرة على نقد الأساليب الأدبية ما لم يؤت غيره، فكان في تفسيره يغوص على المعاني البيانية الدقيقة، ويستخرج من بحر القرآن لآلئ البديع، معتمداً على ذوقه الأندلسي الرفيع الذي يجمع بين جزالة اللفظ وسعة المعنى[17].

ومن أمثلتها:المثال الأول (تفسير المناسبة بين سورة الفاتحة وسورة البقرة):

عند ختام سورة الفاتحة والبدء بسورة البقرة، يبرز أبو حيان جمال النظم الأدبي، فيوضح أن الفاتحة خُتمت بالدعاء اهدنا الصراط المستقيم، فجاءت سورة البقرة في بدايتها ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين كجواب لهذا الدعاء. ويشرح أدبياً كيف أن هذا الترابط يجعل القرآن كالسورة الواحدة، مؤكداً أن هذا التلاحم هو أعلى درجات البلاغة العربية التي تتجاوز قدرة البلغاء[18] .

المثال الثاني (تفسير قوله تعالى: وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا في سورة مريم):

يحلل أبو حيان هذه الآية تحليلاً أدبياً جمالياً، فيشرح استعارة الاشتعال للشيب. ويقول إن تشبيه انتشار الشيب في الرأس بانتشار النار في الحطب هو من أبلغ الاستعارات التمثيلية. ثم يبحث في سر تنكير كلمة شيباً

OPEN ACCESS
CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

وتمييزها، مبيناً أن هذا الأسلوب الأدبي يفيد الشمول والعموم، أي أن الشيب لم يترك شعرة واحدة إلا وشملها، وهو تصوير فني لضعف الإنسان وتقدمه في السن بأسلوب رائع الجمال[19] .

أن الصناعة الأدبية عند أبي حيان هي التي منحت تفسيره البحر المحيط روحاً وحياة. لقد استطاع أن يثبت أن القرآن ليس مجرد قواعد نحوية، بل هو قمة الأداء الأدبي والجمالي. فمن خلال ربطه للمناسبات وتحليله للاستعارات، قدم لنا صورة متكاملة عن الإعجاز البياني، مما جعل تفسيره مدرسة للأدباء بقدر ما هو قبلة للنحاة.

أثر القراءات القرآنية في توجيه المعنى عند أبي حيان

يُعد علم القراءات أحد الركائز الأساسية التي بنى عليها أبو حيان تفسيره؛ فهو لم يكن مجرد ناقل للقراءات المتواترة والشاذة، بل كان إماماً مقرياً يمتلك سنداً متصلاً بأئمة القراء. تظهر عبقرية أبي حيان في كيفية توظيف الاختلاف الإعرابي الناتج عن اختلاف القراءات لإثراء المعنى التفسيري. بالنسبة له، القراءة سنة متبعة، لكنها في الوقت ذاته يجب أن تخضع لموازين لغة العرب. إن البحر المحيط يعد من أوسع التفاسير التي تذكر القراءات وتوجهها نحوياً، حيث يجعل من تعدد القراءات وسيلة لتعدد المعاني والظلال البيانية للآية الواحدة، مما يكشف عن سعة القرآن واستيعابه لأفصح لغات العرب.يقول الدكتور عبد العلي المسؤول عن منهج أبي حيان في التعامل مع القراءات:

إن أبا حيان الأندلسي في بحره قد جعل القراءات أصلاً يدور عليه التفسير، فهو يوجه القراءة توجيهاً لغوياً دقيقاً، ويربط بين اختلاف وجوه القراءة واختلاف المعاني المستنبطة، معتمداً في ذلك على تبحره في النحو، مما جعل تفسيره ديواناً للقراءات وتوجيهها النحوي[20].

يؤكد الإمام الزركشي، على براعة أبي حيان في هذا الفن بقوله:

كان الإمام أبو حيان أثير الدين إماماً في القراءات، عارفاً بعللها، بصيراً بمذاهب النحاة فيها، وقد أودع في تفسيره الكبير ما لم يودعه غيره من ذكر القراءات وتخريجها على قواعد اللغة، فكان تفسيره مرجع القراء في بيان وجه فصاحة ما يقرأون[21].

ومن أمثلتها:المثال الأول (تفسير قوله تعالى: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ في سورة آل عمران):

يناقش أبو حيان أثر القراءة في الوقف والابتداء هنا؛ فذكر قراءة الوقف على لفظ الجلالة إلا اللهُ، مبيناً أن الراسخون حينئذٍ تكون مبتدأ والخبر يقولون. ثم يناقش قراءة الوصل والراسخونُ، مبيناً أنها تُعرب عطفاً على

OPEN ACCESS
CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

لفظ الجلالة. ويشرح كيف أن هذا التنوع في القراءة والإعراب يغير المعنى: هل التأويل لله وحده أم يعلمه العلماء أيضاً؟ ويوجه ذلك لغوياً بأدلة باهرة[22] .

المثال الثاني (تفسير قوله تعالى: يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ في سورة البقرة):

يتناول أبو حيان قراءتي يَخْدَعُونَ ويُخَادِعُونَ. فيشرح من الناحية الصرفية واللغوية الفرق بين وزن فَعَلَ وفَاعَلَ. ويوضح أن يُخَادِعُونَ تدل على المشاركة والمحاولة، بينما يَخْدَعُونَ تدل على وقوع الفعل. ثم يوجه ذلك أدبياً مبيناً أن المنافقين حاولوا الخداع (يخادعون) لكن النتيجة كانت أنهم هم المخدوعون في الحقيقة، وهذا التفصيل يبرز كيف تخدم القراءة المعنى العقدي والنفسي للآية[23] .

أن أبا حيان جعل من القراءات القرآنية مادة حية للبحث اللغوي والبياني. لم يتعامل مع القراءة كمجرد رواية، بل كحجة لغوية دامغة. إن قدرته على الجمع بين الرواية المسندة والدراية النحوية جعلت من البحر المحيط ميزاناً تُعرض عليه القراءات، مما أثبت أن اختلاف القراءات هو ثراء في المعنى وإعجاز في المبنى.

البلاغة والبيان في البحر المحيط: رصد الإعجاز من خلال الفصاحة

لم يكن أبو حيان الأندلسي يرى النحو مجرد قواعد جافة، بل كان يراه خادماً للبلاغة والبيان؛ لذا جاء تفسيره البحر المحيط مشحوناً باللطائف البلاغية التي تكشف عن إعجاز القرآن الكريم. يتناول أبو حيان في هذا القسم علوم البلاغة الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع. فهو يبحث في أسرار التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والالتفات، كما يحلل الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية بذكاء لغوي حاد. إن منهجه البلاغي يعتمد على إثبات أن كل حرف في القرآن وضع في مكانه لحكمة بيانية لا يسد مسدها غيره، مما يجعل النص القرآني في أعلى درجات الفصاحة التي تخرس ألسن البلغاء.يقول الدكتور محمد بن ناصر الشتري عن العناية البلاغية عند أبي حيان:

لقد مزج أبو حيان في بحره بين النحو والبلاغة مزجاً فريداً، فهو يرى أن كمال الإعراب لا يتحقق إلا ببيان نكتة البلاغة في الآية، وقد استطاع أن يبرز وجوه الإعجاز البياني من خلال تتبعه الدقيق لمواقع الكلمات وعلاقاتها السياقية، مما جعل تفسيره مدرسة في تذوق البيان القرآني[24].

يؤكد الإمام الزركشي على دقة ملاحظات أبي حيان البلاغية بقوله:

كان أثير الدين أبو حيان من أشد الناس فحصاً عن أسرار النظم، فكان في تفسيره يذكر من وجوه البيان والبديع ما يشهد له بالتقدم في هذا الفن، ولم يكن ينقل كلام أهل البلاغة نقلاً مجرداً، بل كان يناقشهم ويضيف عليهم من نتاج فكره الأندلسي ما يزيد المعنى جلاءً وفصاحة[25].

OPEN ACCESS
CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

ومن أمثلتها:المثال الأول (تفسير قوله تعالى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ في سورة الفاتحة):

يتوقف أبو حيان عند تقديم المفعول به إياك على الفعل نعبد. ويشرح بلاغياً أن هذا التقديم يفيد القصر والحصر، أي نعبدك وحدك ولا نعبد غيرك. ثم يحلل سر تكرار إياك مع الاستعانة، مبيناً أن إفراد كل منهما بالذكر يدل على استقلال كل عبادة وكل استعانة بالله وحده، وهو تفصيل بلاغي يرسخ معنى التوحيد في نفس القارئ من خلال البنية النحوية[26] .

المثال الثاني (تفسير قوله تعالى: وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي في سورة هود):

يحلل أبو حيان هذه الآية بوصفها قمة في البلاغة العربية. فيتحدث عن نداء ما لا يعقل (يا أرض، يا سماء) وكيف صور القرآن الجمادات في صورة المطيع الممتثل لأمر الله. ثم يبحث في اختيار الأفعال ابلعي وأقلعي وما فيها من استعارة مكنية، مبيناً الإيجاز الإعجازي في وصف نهاية الطوفان بكلمات يسيرة لكنها تحمل عظمة السلطان الإلهي، ويرد على من حاول نقد فصاحتها بقواعد النحو، مبيناً أن البلاغة هنا هي الحاكمة[27] .

أن البلاغة عند أبي حيان هي روح التفسير التي تحمي القواعد النحوية من الجمود. لقد استطاع في البحر المحيط أن يرصد ملامح الإعجاز من خلال فصاحة اللفظ وقوة المعنى. إن هذا المنهج البياني جعل من تفسيره مرجعاً للأدباء والبلاغيين، وأثبت أن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي تتجلى عظمتها في نظمها وبلاغتها قبل أي شيء آخر.

موقف أبي حيان من المدارس النحوية:

يُعد أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط علماً في الاستقلال الفكري النحوي؛ فعلى الرغم من أن تكوينه العلمي أندلسي يميل غالباً إلى آراء البصريين، إلا أنه لم يكن متعصباً لمدرسة دون أخرى. لقد تميز منهجه بالإنصاف والموضوعية، فكان يدور مع الدليل النحوي والسماع العربي حيث دار. كان البحر المحيط ساحة للمناظرة العلمية الرصينة، حيث يستعرض أبو حيان آراء الكوفيين والبصريين بكل أمانة، وينتصر لما يراه موافقاً للفصاحة القرآنية وكلام العرب، حتى وإن خالف كبار أئمة النحو مثل سيبويه أو الزمخشري، مما جعل تفسيره مرجعاً جامعاً للخلاف النحوي وتوجيهه.يصف الدكتور فخر الدين قباوة استقلالية أبي حيان النحوية

وإنصافه للمذاهب قائلاً:

إن أبا حيان في تفسيره لم يلتزم بمذهب نحوي معين التزام تعصب، بل كان مجتهداً يختار من مذهب البصريين أو الكوفيين ما يعضده الدليل والسماع. وقد أورد في بحره آراء المدرستين بكل تفصيل، مما جعل الكتاب سجلاً حافلاً للمذاهب النحوية، مع ترجيحات علمية تدل على طول باعه واستقلالية فكره[28].

OPEN ACCESS
CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

يؤكد الإمام السيوطي على تفوق أبي حيان في معرفة مذاهب النحاة ونقدهم بقوله:

كان أثير الدين أبو حيان أعلم الناس بمذاهب النحويين، بصريين وكوفيين، وأقدرهم على نصرة ما يراه حقاً بالدليل. وفي البحر المحيط يظهر جلياً إنصافه للكوفيين في مسائل كثيرة رآهم فيها أقرب إلى الصواب، ولم يمنعه جلالة قدر سيبويه من مخالفته إذا وجد النص القرآني أو السماع العربي يؤيد غيره[29].

ومن أمثلتها:المثال الأول (تفسير قوله تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ في سورة النساء):

في مساعدة قراءة الجر (والأرحامِ)، يستعرض أبو حيان مذهب البصريين الذين يمنعون عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار، ويورد مذهب الكوفيين الذين أجازوا ذلك. ورغم ميله للبصريين، إلا أنه ينقل أدلة الكوفيين من أشعار العرب ويناقشها بإنصاف، مبيناً أن القراءة القرآنية هي أقوى حجة، ولا ينبغي ردها بقاعدة نحوية، وهذا يظهر احترامه للنص ولآراء الكوفيين الاستدلالي[30].

المثال الثاني (تفسير قوله تعالى: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ في سورة البقرة):

يناقش أبو حيان مساعدة تقديم المفعول به عهدي وفعل ينال. فيبحث في مذاهب النحاة حول الفاعل والمفعول إذا كان أحدهما لا تظهر عليه الحركة. ويورد آراء المدرسة الكوفية في تجويز تقديم المفعول به في مواضع يمنعها البصريون. ويبين أبو حيان أن السياق القرآني هنا يدعم مذهب من يجيز التقديم لإبراز الأهمية، مما يدل على أنه يرجح المذهب الذي يخدم المعنى القرآني بغض النظر عن انتمائه المدرسي[31] .

أن موقف أبي حيان من المدارس النحوية كان موقف الحَكَم العدل والناقد البصير. لقد استطاع في البحر المحيط أن يكسر حدة التعصب المذهبي النحوي، جاعلاً من القرآن الكريم هو الأصل ومن القواعد النحوية خادماً له. إن إنصافه للكوفيين والبصريين على حد سواء جعل من تفسيره مرجعاً لكل من يطلب العلم بتجرد وموضوعية، وأثبت أن الحق في العلم لا ينحصر في مدرسة واحدة.

القيمة العلمية لمصادر أبي حيان وتأثيره في المفسرين اللاحقين

تستمد تفسير البحر المحيط قيمته العلمية من غزيرة مصادره ودقة اختيارها؛ فقد جمع أبو حيان فيه زبدة الفكر الأندلسي والمشرقي، معتمداً على أمهات الكتب في التفسير واللغة. لم يكن مجرد ناقل، بل كان ناقداً ومصفياً لهذه المصادر، حيث اختصر المحرر الوجيز لابن عطية، وناقش الكشاف للزمخشري بصرامة. هذا الثراء المعرفي جعل من كتابه محطة إجبارية لكل من جاء بعده من العلماء؛ فصار البحر المحيط المصدر

OPEN ACCESS
CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

الأول للإعراب واللغة في التفسير، وتأثر به كبار المفسرين مثل السمين الحلبي (تلميذه) وابن عادل والآلوسي، مما جعله حلقة وصل ذهبية في تاريخ الدراسات القرآنية.يصف الدكتور محمد بن ناصر الشتري اعتماد

المفسرين اللاحقين على مادة أبي حيان العلمية قائلاً:

لقد أصبح البحر المحيط المصدر الأساسي الذي لا يستغني عنه مفسر بعد أبي حيان، خاصة في الجوانب اللغوية والنحوية. وقد ظهر أثره جلياً في تلميذه السمين الحلبي في كتابه 'الدر المصون'، الذي اعتمد اعتماداً كلياً على اختيارات شيخه، بل إن كثيراً من المفسرين الذين جاؤوا بعده كانوا عالةً على تحقيقاته النحوية وتوجيهاته اللغوية[32].

يؤكد الإمام الشوكاني على علو كعب أبي حيان وتأثيره في المدارس العلمية بقوله:

إن تصانيف أبي حيان، وعلى رأسها البحر المحيط، قد رزقها الله القبول في المشرق والمغرب، وقد اعتنى بها العلماء اعتناءً بالغاً تدريساً وتلخيصاً واقتباساً. ولا تجد كتاباً في إعراب القرآن صُنف بعده إلا وهو مقتبس من فوائده، مما يدل على أن أبا حيان قد وضع بصمة لا تُمحى في تاريخ التفسير اللساني[33].

ومن أمثلتها:المثال الأول (تأثيره في السمين الحلبي في الدر المصون):

عندما يفسر السمين الحلبي قوله تعالى في قلوبهم مرضٌ، تجده ينقل أقوال أبي حيان في إعراب مرض واشتقاقها حرفياً، ثم يناقش ردود أبي حيان على الزمخشري. هذا التبعية العلمية تُظهر أن البحر المحيط كان بمثابة المختبر الذي صُيغت فيه القواعد التي سار عليها مفسرو القرن الثامن الهجري وما بعده، حيث أصبح قول أبي حيان هو القول الفصل في المسائل النحوية المعقدة[34].

المثال الثاني (منهجه في نقد ابن عطية والزمخشري):

في سورة الأنعام، عند قوله تعالى وجعلوا لله شركاء الجن، ينقل أبو حيان رأي ابن عطية في تقديم المفعول الثاني، ثم يعقّب عليه برأي الزمخشري، ثم ينقد الاثنين معاً بناءً على أصول المدرسة الأندلسية. هذا المنهج النقدي هو الذي جعل المفسرين اللاحقين (مثل ابن عادل في اللباب) ينقلون هذه المحاكمات العلمية، مما رفع من القيمة النقدية للتفسير وجعله مرجعاً للتحقيق وليس مجرد جمع للأقوال[35].

خلاصة القول أن البحر المحيط لم يكن مجرد كتاب في التفسير، بل كان مؤسسة علمية نقلت علوم الأندلس إلى المشرق وصهرتها في قالب واحد. إن القيمة العلمية لمصادره وتأثيره الطاغي فيمن جاء بعده يثبتان أن أبا حيان نجح في خلق مدرسة تفسيرية لسانية مستقلة، لا تزال حتى يومنا هذا هي المرجع الأول والآخر لكل من أراد أن يفهم القرآن من بوابة اللغة والنحو.

CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

الخلاصة:

في ختام هذا المقال، نصل إلى حقيقة مفادها أن البحر المحيط لم يكن مجرد تراكم للمعلومات النحوية، بل كان تجلياً لعبقرية أبي حيان الأندلسي في المزج بين فقه اللغة وعمق التفسير. لقد استطاع أبو حيان أن يثبت أن النص القرآني بنية لغوية معجزة، لا يمكن سبر أغوارها إلا بامتلاك أدوات اللسان العربي من نحو وصرف وبلاغة واشتقاق.

إن دراسة مكانة ومنهج تفسير البحر المحيط تقودنا إلى الاعتراف بأن الإمام أبا حيان الأندلسي قد أحدث نقلة نوعية في علم التفسير. لقد كان مفسراً أديباً، ونحوياً فقيهاً، ولغوياً ناقداً. إن عبقريته في تحليل التراكيب القرآنية بأسلوب يجمع بين الجزالة والعمق جعلت من كتابه إرثاً باقياً، ومنارةً تهدي الباحثين في بحور اللغة والقرآن.

الحواشي

1 الزركلي، خير الدين، الأعلام: دمشق، دار العلم للملايين، ط15، أيار/مايو 2002م، ج7، ص152.
2 السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ). بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. بيروت، لبنان: المكتبة العصرية، المجلد 2، صفحة 280-281.
3 ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (852هـ) .الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .حيدر آباد، الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، المجلد 5، صفحة 48-49.
4طاش كبري زاده، عصام الدين أحمد بن مصطفى (968هـ). مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، المجلد 2، صفحة 115-116.
5الذهبي، محمد حسين (1397هـ). التفسير والمفسرون. القاهرة، مصر: دار الحديث، المجلد 1، صفحة 320-321.
6 الأندلسي، أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف (745هـ). البحر المحيط في التفسير. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، المجلد 1، صفحة 105-106.
7الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، ج7، صـ 67–72.
8الطيار، مساعد بن سليمان (1423هـ). تفسير القرآن الكريم وأصوله بلسان عربي مبين. الرياض، السعودية: دار التدمرية، الطبعة الأولى، صفحة 142.
9الشوكاني، محمد بن علي (1250هـ). البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. بيروت، لبنان: دار المعرفة، المجلد 2، صفحة 177.
10الأندلسي، أبو حيان ، البحر المحيط. المجلد 6، صفحة 417.
11 أيضا،ج1، صـ 265–268.
12السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي (771هـ). طبقات الشافعية الكبرى. القاهرة، مصر: دار إحياء الكتب العربية، المجلد 9، صفحة 286-287.
13الشتري، محمد بن ناصر (1418هـ). أبو حيان الأندلسي ومنهجه في التفسير. الرياض، السعودية: دار العاصمة، الطبعة الأولى، صفحة 210-212.
14الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، ج3، صـ 5–12
15أيضا، ج3، صـ 433–442 .
16الإصلاحي، محمد أجمل (1424هـ). مفهوم النظم في تفسير البحر المحيط. الهندية، علي كره: معهد الدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، صفحة 88-89.
17ابن الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد (727هـ). البرهان في إعجاز القرآن. دمشق، سوريا: دار الفكر، المجلد 1، صفحة 145-146.

OPEN ACCESS
CC BY

Al-Asr International Research Journal of Islamic Studies
Vol 5 Issue 1 (January-March) 2025
ISSN E: (2790-7694)
ISSN P: (2790-7686)
Published:
March 30, 2025

18الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، ج1، صـ 33–36.
19أيضا، ج6، صـ 13–16 .
20المسؤول، عبد العلي (1421هـ). القراءات في تفسير البحر المحيط. الرباط، المغرب: دار الأمان، الطبعة الأولى، ص 65-66.
21الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (794هـ). البرهان في علوم القرآن. بيروت، لبنان: دار المعرفة، المجلد 1، صفحة 312-313.
22الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، ج2، صـ 8–15.
23أيضا، ج1، صـ 148–152 .
24الشتري، محمد بن ناصر (1418هـ). أبو حيان الأندلسي ومنهجه في التفسير. الرياض، السعودية: دار العاصمة، الطبعة الأولى، صفحة 245.
25 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، صـ 200–203.
26الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، ج1، صـ 27–30-.
27أيضا، ج5، صـ 220–227.
28قباوة، فخر الدين (1421هـ). منهج أبي حيان الأندلسي في النحو في كتابه البحر المحيط. حلب، سوريا: دار الفكر، الطبعة الأولى، صفحة 112-113.
29السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ). بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. بيروت، لبنان: المكتبة العصرية، المجلد 2، صفحة 282.
30 الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، ج3، صـ 5–12
31الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، ج1، صـ 363–368
32الشتري، محمد بن ناصر (1418هـ). أبو حيان الأندلسي ومنهجه في التفسير. الرياض، السعودية: دار العاصمة، الطبعة الأولى، صفحة 512.
33الشوكاني، محمد بن علي (1250هـ). البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. بيروت، لبنان: دار المعرفة، المجلد 2، صفحة 179. ج4، صـ 209–214.
34الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، ج1، صـ 150–156.
35 أيضا، ج4، صـ 209–214 .

OPEN ACCESS
CC BY